الأدب فى سير الأعلام :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٨ —

البطل الضرير :

وكان ملتن فى جنوحه إلى الراحة يفكر فيما عسى أن يرد به سلامسيس على رده هو عليه ، ويدير فى خاطره ماذا يصنع وماذا يعد من رد ؛ حتى جاء هذا الكتاب فاستأثر بفكره ، وطلب إلى ملتن أن يرد فيدفع عن وطنه ما يتهم به كما فعل حيال صيحة سلامسيس ، وما كان فى حاجة إلى أن يطلب إليه ذلك . ففى هذا الكتاب تهجم وقح على قوم يجلهم وعلى حكومة يعتز بها فضلا عما فيه من مطاعن شخصية كفيلة بأن تثيره وتسخطه على صاحبه أعظم السخط .

ومن عسى أن يكون صاحب هذا الكتاب ؟ ذلك ما أخذ يتساءل ملتن عنه ؛ فليس على غلافه إلا أنه طبع بإشراف الكسندر مورس ، وفطن ملتن آخر الأمر أن مورس هذا هو مؤلف الكتاب ولكنه يتوارى . والواقع أن مؤلف الكتاب كان يعيش فى انجلترة ما بين أكسفورد ولندن ، وهو پيير دى مولان ، ولم يجرؤ بالضرورة أن يلقى بكتابه إلى مطبعة فى انجلترة فأرسله إلى مورس فى هيبيج ، وهو من سلالة اسكتلندية ولكن أباه نزح إلى هولندة ؛ ونشر مورس الكتاب وقدم له ، وظن ملتن وشايعه فى ظنه أكثر الناس أن الناشر هو المؤلف ؛ وكتم مورس حقيقة الأمر كتمانا شديداً فيما يتعلق بمؤلف الكتاب ، ولكنه أنكر أنه مؤلفه ؛ إلا أن إنكاره لم يزد الناس إلا اعتقاداً بأنه هو لخفت عليه لعنة ملتن وأصحابه أجمعين ، وبالغ مورس فى كتمان سره وكان شديد الوعى ؛ فلو بدرت منه كلمة أو إشارة

من الآخرين . ففى مضمار السياسة والوطنية يجب أن تعمم الأفكار العربية الصحيحة ، وأن تكون لنا فكرة أو عقيدة ثابتة لا نخرج عن حدودها .

وأن نميز بين الآراء الصحيحة والمشوشة التى تبث فى وسطنا ، فنفضح الموضوعة بقصد التمويه والتضليل ... فكثير من المفتريات والأباطيل تلعب دوراً خطيراً فى عقول عامة الناس وفريق من الخاصة .

ولنضرب مثلا : لنفرض أنها حدثت ثورة فى بلد عربى فى وجه الطغيان ... وقد حدثت فعلا ... وكانت النتيجة المعروفة ... وذهبت الأمة فى آرائها مذاهب شتى ! لماذا ؟ لأن الأجنبى سمم الأفكار وألبس الباطل بالحق ... بأبواق دعايته المنظمة ... ونجح أخيراً فى تفريق الكلمة وصدع الشمل ، وتشتيت الجماعة ، ورد الكيد إلى النحر ... وباتت الأمة تئن أحرارها ... وتخبط فى دياجير العمى جهلتها ... وكانت الطامة الكبرى والعياذ بالله ! .

وفى مضمار المعرفة : يجب أن يكون لنا منبع علمى عربى تنهل منه ناشئتنا ، فلا نشعر بالنقص على الدوام ، ويعقم عقليتنا .

وفى اللغة : (وهى الأمة ... والأمة هى) كما يقول الحكماء لغتنا الخالدة يجب أن نؤمن بعبقريتها ، ونفخر ونعتز .

ولا بد من زيادة الإيضاح حول « الاستقلال الفكرى » لكى ندلل على أهميته وأثره :

قضت البلاد العربية حيناً من الدهر طال وهى تتلقى صنوف المصائب من غفوة طبيعية فى ظلام العهد العثمانى .. إلى غفوة صنعية إكراهية فى هذا العهد الأسود الأبيض المميت ، حيث تتلقى كل يوم بل كل ساعة بل كل لحظة ؛ ضربة صامتة فى صميم الاستقلال والكرامة — يوجهها عبدة المادة وإخوان المطامع . لقد توطنت النفوس على الشعور بالنقص ، وضعف الثقة بالذات مع مرور الزمن ... وصرنا نسلك مسلكا عجيباً ، يندى له جبين التاريخ العربى . لنذكر كل أولئك لنعرف مدى حاجتنا إلى الاستقلال الفكرى !

وصفوة القول : لا استقلال صحيح إلا بهذه الثلاثة .

(***)

تنم عن صاحب الكتاب لحاق به وهو على مقربة من كرمول ، ومن ملتن سوء العذاب ...

وتنزّى ملتن تنزى الليث الجريح يريد أن يتعجل الرد ، ولكن الرض يقعده والعمى يحوجه إلى من يكتب له ؛ ولم يك أعون له يومئذ من ابن أخته جون فيليبس ، ولكن فيليبس كان في شغل برد كافه به عمه على هجوم آخر صغير وجه إليه ؛ لذلك لم يكن بد من التمهل . فتمهل ملتن على رغمه وإن جوانحه لتتقد حقداً على مورس ومن دفعه من الكائدين .

وظل ملتن يرصد أنباء مورس ويتسقط معايبه ، ويرسل من يتجسس عليه ويجمع ما يستطيع جمعه مما عسى أن يكون حوله من أمور تشينه في حياته العامة وفي حياته الخاصة .

وكان ملتن حرياً أن يترفع عن هذا فلا يكلف نفسه مثل هذا العناء من أجل إمعة من النكرات بعد ازدراء ملتن إياه لما في ذلك من مجرد الاكتراث له شرفا يلحق به ، وحسبه أن يرد على ما نسب إلى الحكومة من مثالب مقيما الدليل إن أمكنه على بطلانها وحقيقة الدافع إليها .

وإنه لما يؤسف حقاً أن يتنزل رجل مثل ملتن على جلالة قدره وسمو أفقه إلى ما لا يخرج في جوهره عن كونه مغالبة ومجادلة حزبية لقوم يعكفون عليها غدواً وعشياً لا يبتغون إلا الكيد ولو أنه أعرض عنهم واستصغر أذاهم لكانوا هم الكيدين ...

وجاء رده بعد سنتين أي سنة ١٦٥٤ إذ نشر باللاتينية « الدفاع الثاني » ، وإن المرء ليتملكه الأسف كلما فكر فيما كانت تجدي على الشعر مثل هذه الطاقة من جانب شاعر اقترن اسمه بالسمو في ذلك الفن ، وجاوز بلسان قومه في شعر الغناء واللاحم أسمى درجة أمكن أن يبلغها شاعر قبله وبعده بحيث صار له في الشعر الانجليزي أفق يشرف أقوى الشعراء بعده تحليقا أن يدنو منه فيستشرف له ، وفي شعر الدنيا قاطبة مكانة تسلكه في القلائل الأفذاذ .

على أن كتاباته النثرية اللاتينية منها والانجليزية لم تخل من فائدة وأهمية فمنها وقفنا على كثير من آرائه في الدين والسياسة والاجتماع ، ومنها لمحنا بعض خلاله ونزعات وجدانه وخلجات شعوره ، هذا إلى أنه كان يبلغ أحيانا في نثره كما سبق القول درجة لا تتقاصر عن مستوى شعره ، بلاغة عبارة ، وإشراق ديباجة ، وقوة أداة ، وروعة فن . مما جعله بعد فيمن لهم على اللسان الانجليزي عظيم فضل ...

ويستبين كثير من صفاته ككاتب أحسن ما تستبين في كتابه هذا « الدفاع الثاني » فالرأي مجتمع على أنه من خير ما كتب ملتن إن لم يكن خير ما كتب جميعاً ، ويقول ذوو الخبرة باللاتينية ممن تحدثوا عنه إن ملتن أشرف على ذروة البلاغة فيه ، وقد ضمنه جانباً من حياته الشخصية ، وتعرض فيه لأقوى شخصيات الحكومة الجمهورية وأورد طائفة من آرائه الأساسية في السياسة والحكم ، وأنذر في ختامه بما يخاف ، وأفصح عما يتوقع إن لم يأخذ بنصحه المعاصرون .

أسرف ملتن في التفاخر بحكومة كرمول وما أدته إلى انجلترة من صنيع ، وما كان لها في قضية الحرية من مواقف مشهودة ، وما أتيح لها من نصر فيها لم تشهد الدنيا مثيلا له ، وما كان إلا مردداً بكلامه هذا ما سبق أن ذكره في الرد على سلامسيس ؛ وكذلك كان شأنه في امتداح رجال ذلك العهد وما قدمت أيديهم من خير ، وأمعن ملتن في الذهاب بنفسه وكان شموره بأنه قاهر سلامسيس يدفعه إلى الغلو في ذلك حتى لقد أشبه أن يكون غلوه شططاً ، وكان كلما تذكر ما رماه به خصمه من مطاعن يعظم غلواؤه فينسى أنه بذلك يبدي ما كمن في نفسه من غيظ .

يقول لمن ظن أنه خصيمه : « تتساءل من أكون ومن أين جئت وتزعم أني في ذلك يحيط بي الشك ، كذلك أحاط الشك بهوميروس من يكون وأحاط بديموستين ... » ثم يسرد ملتن تاريخ حياته ويعدد مآثره ومفاخره ، ويدفع عن نفسه ما نسب إليه ، حتى ما عيّر به من فقد بصره فلم يدع هذا بغير رد فأشار كما سلف القول إلى براءة عينيه في مظهرهما مما يعيبهما حتى ليخالهما من يراهما مبصرتين كأحسن ما يكون الأبصار وأعه ، ونجد فيما يقول ملتن عن نفسه مثلا من أحسن الأمثلة لما يلحق الرجل القوي من ضعف إذا عنى من الأمور بما لا يتفق وسامي منزلته وعظيم خطره ؛ والحق إن شدة إحساس ملتن بذاته هو الذي يجره إلى مثل هذه المواقف ...

ويرضى ملتن لنفسه فضلا عن هذا أن يوجه المطاعن إلى

مورس وكان خليقاً أن يدرك وهو المسرف فى كبريائه وغلوائه أن الجملة من مثله على مورس وأشباهه إن هى إلا ضرب من المهانة وإلا جاز أن يتداخل المرء إعجاب بقوة النسر أو الصقر إذا انقض على عصفور وديع ، أو ببطولة الفارس إذا جندل غلاماً لم يدر ما الدرع بعد ولا ما السيف !

ومن عجب الأمور حقاً أن يهتم ملتن اهتماما كبيراً بالعيب على مورس كأنما كان له نداً يحرص أن يظهر عليه ، وأن يأتى فى مهاجمته بأمور حسبه فيها من إساءة إلى نفسه أن يكون هو قائلها ؛ فهو يتدسس على علاقاته بالنساء ويستعرضها متهكما ساخراً وينمت مورس أثناء ذلك بما يشاء خياله من نعوت ويعنف عليه ويغلظ غلظاً كبيراً حتى ليكون للمرء عذره إذا ظن أن ملتن إنما يباهى بمقدرته على الطعن والكيد ...

ولكن « الدفاع الثانى » على الرغم من هذا كله يعرض أحسن ما كتب ملتن كما ذكرنا ، ومرد ذلك إلى صفات فيه بيناها ، ونزيد عليها صفة أخرى جديرة بالاعجاب حقاً وخليقة أن تجعل للكتاب ذلك الأثر الحسن فى نفوس قرائه وتلك هى هواجسه وقلقه على الحرية ؛ فقد أحيطت حماسته لكرمول بما ألقى عليها الفتور من التحذير والنصح والإبانة عما توسوس به نفسه من مخاوف .

وكان كرمول قد استغنى عن البرلمان وأصبح يلقب بحامى الجمهورية ، وإنه فى الحق لملك مستبد بالأمر لا ينقصه إلا التاج ، وأحس ملتن أن الحكومة القائمة حكومة أقلية متحكمة تعتمد على الجيش ، ولا سند لها من الشعب إلا أقلية تدين لها طوعاً أو كرهاً ، وعلى ذلك فلا بد أن يكون لها من المبادئ ما تستغنى به عن الكثرة المؤيدة لحياتها فى استمساكها بما يميزها من غيرها قدراً وفضلا .

ولم يك ملتن راضياً عن مسلك كرمول فى المسألة الدينية كما ذكرنا ، وكذلك لم يعجبه تفكير كرمول لبعض الرجال ممن قام على كواهلهم عهده ، وأزعجه تشدد كرمول والتجاؤه إلى العنف وعد ذلك نذيراً بخنق الحرية بأيدى أوليائها ؛ وغمزت على قلبه المخاوف أن يمنى بخيبة جديدة كتلك التى منى بها من القساوسة أولا ثم من البرسبتيريز ؛ فها هو ذا رأس الدولة يميل إلى القائلين بإشراف الدولة على الكنيسة أعنى بإقامة كنيسة للدولة ، وهكذا يجد ما كان يحلم به من حرية العبادة وحرية النشر وحرية الطلاق تتهادى جميعاً صرعى فى عالم ما أبعد أهله عن الفطنة والمدنية فى رأيه وما أبعده فى جملته عما وصف به من السمو ، وما علق عليه من آمال ...

وتتجلى لباقة ملتن فيما اصطنعه لبيان معايب كرمول فهو يسوق كلامه ساق النصح فينهاه عن أمور ويطلب إليه فعل غيرها فيتضمن نهيه وطلبه أن كرمول فعل ما لا يصح فعله وقصر فيما يجب أن يفعل ...

يقول ملتن إن الدولة مكينة الدعائم إذ أنه يسيطر عليها رجل عظيم ويعينه مجلس يتكون من عظماء أماثل ، وهى بذلك خير مما تكون عليه لو وجد البرلمان وفساده وسخافاته ؛ ولكن لا بد من الحرية ، ولا بد أن تكون الحرية آمنة مطمئنة لا يأتيها خوف ولا يمسها عنف . فانها إن مسها العنف من الرجل الذى تكفل بحمايتها كان ذلك بمثابة ذبح الفضيلة ؛ ويتجه بالخطاب إلى كرمول طالباً إليه أن يمسك عليه ذوى الرأى والمشورة من رجاله ويذكر له بعض الأسماء ؛ ثم يسأله ملحاً أن يدع الكنيسة للكنيسة ويعظه ألا يزيد القوانين وقد رأى عدداً كبيراً منها يشرع حديثاً وألا يحظر شيئاً لا يصح أن يحظر ، وأن يعنى بالتعليم ونشر الثقافة وأن يكافىء المجتهدين فى هذا السبيل ، وينصح له أن يطلق حرية الفلسفة ، وأن يدع كل ذى رأى ينشر رأيه بغير رقابة فلا يأتى العلم على أيدى الجهلاء ؛ ثم يدعوه أن ينصت إلى كل شىء وألا يخاف من استماع أى رأى خطأ كان أو صواباً إلا رأى من يدعو إلى الوقوف فى وجه الحرية ...

وفى ذلك الذى يقوله ملتن أبلغ رد على الذين اتهموه بمهادنة كرمول بالحق وبالباطل ؛ ونعجب لمن يكون رجل مثل الدكتور جونسون ممن اتهموه بهذا . قال جونسون فى كتابه عن ملتن : « وكان كرمول قد طرد البرلمان معتمداً على السلطان الذى قضى به على الملكية ، وأخذ يتملك بنفسه تحت اسم حامى الجمهورية ، ولكن كانت له قوة ملكية بل وأكثر من قوة ملكية ؛ أما أن سلطانه كان مشروعا فذلك ما لم يقل مدع به ، ولقد أقام هو نفسه أساس حقه على الضرورة ، ولكن ملتن وقد ذاق

حلاوة استخدامه هكذا فى صورة عامة لم يكن يرضى أن يعود إلى الجوع والفلسفة نخان الحرية التى دافع عنها وأسلمها إلى قوته ، بينما كان يؤدى وظيفته فى عهد اغتصاب واضح ، وليس فى الآراء أحق وأعدل من الرأى القائل بأن الثورات لابد أن تنتهى إلى العبودية ، وأن الذى يرر قتل مليكه بسبب أفعال عدها غير قانونية يُرَى الآن وهو يبيع خدماته وضروب ملقه لطاغية ، لا يمكن كما هو واضح أن يجد عنده عملا قانونياً » .

وما خان ملتن الحرية ولا أسلمها إلى قوته وسلطانه ، وإنما خاف على الحرية منذ أن لاحت له أمارات تخيفه عليها من شخص أفرط فى حبه ، وليس يدل ذلك إلا على أنه يجعل الحرية فوق كل شىء وأنه فى سبيلها يضحى بكل شىء ، والحق أننا لا نجد فيما سلف من مواقفه فى جانب الحرية موقفاً أكثر من موقفه هذا دلالة على صدق حبه للحرية وصدق إخلاصه فى كل ما ينهض له من دفاع عنها ، وما نجد كلام چونسون إلا مثلا لما تكون عليه الكتابة عن غرض أو عن جهل .

ويختم ملتن كتابه فيعود إلى الإنذار والتحذير قائلا إنه فعل ما يجب عليه فعله وعلى مواطنيه أن يتدبروا فى أمرهم ، وإلا ساءت العاقبة ، ومهما يكن من شىء بعد ذلك فمرده إليهم فعليهم تبعة كل خير أو شر . يقول فى ذلك « لقد أديت شهادتى ، وأكاد أقول إنى قد بنيت تمثالا لا يسهل هدمه يقوم شاهداً على تلك الأعمال الفريدة الجبارة التى تسمو على كل مدح ؛ وكان مثلى مثل شاعر الملاحم الذى يحرص على قواعد هذا الضرب من النظم ، فلا يعنى بأن يصف حياة بطله الذى يمجد كلها ، وإنما يقتصر على بعض أفعال خاصة من حياته كآخيل إذ كظم ما فى نفسه تلقاء طروادة وكعودة أوليس وكمجىء إينياس إلى إيطاليا ؛ وكذلك فعلت فحسبى مبرراً لموقفى أو عذراً عنه أنى مجدت كما تمجد البطولة على الأقل فتحاً من فتوح بنى قومى ومسرت بغيره مرأى ، إذ من ذا يستطيع أن يسرد أعمال أمة بأسرها ؟ فإذا تنكبتم طريق الفضيلة بعد هذا الذى أظهرتموه من البساطة والحمية وفعلتم ما لا يحلق بكم وما هو دون قدركم . فان أعقابكم سوف يحكمون على أخلاقكم ؛ ولسوف يرون أن الأسس أحكم وضعها وأن البداية كانت مجيدة ، ولكن يحزنهم أن لم يوجد من يرفع القواعد ويتم البناء »

هذا هو ملخص « الدفاع الثانى » أو رد ملتن على مورس ، ولقد بذل هذا المسكين أقصى ما فى وسعه قبل أن ينشر ملتن كتابه ليقنعه بأنه ليس صاحب الكتاب الذى يريد أن يرد عليه فلم يعد من ذلك بطائل إذ أصر ملتن على أنه هو ، وتلك خلة من خلال الشاعر العظيم فما تتجه نفسه إلى أمر أو تتعلق بفكرة إلا اشتد تمسكه بها فصعب زحزحته عنها أو استحال ذلك ، ومن السهل أن نرد هذه الخلة إلى شدة اعتداده بنفسه أولا ثم إلى ثقته ويقينه من أنه لا يفعل شيئاً عن هوى ولا يريد إلا الحق ...

ولما نشر كتابه هالت مورس تلك العاصفة التى أرسلها عليه ، وعاد ينفى عن نفسه أنه كتب شيئاً ، ولقد كان يستطيع أن يفشى السر فيدل على الخصم الحقيق للتن ولكنه آثر أن يتحمل الأذى-وهذه محمدة ومكرمة منه لا ريب ...

وتعاظم مورس الأمر فما يدرى ماذا هو فاعل حياله ، وأول ما خطر له هو شراء ما ورد هيج من نسخ الكتاب وإعدامها جميعا ولكن ماحيلته فيما نشر من النسخ فى القارة وفى انجلترة ؟ وأعد رداً على ملتن لم يعد كونه دفاعا عن نفسه ونفياً لما رمى به من تهم وبخاصة ما يتصل بعلاقاته بالنساء ، تلك التهمة التى جعلت الأمهات فى كل بيت يحفلن من دخوله عليهن وعلى بناتهن الأمر الذى أحزنه وأزعجه حتى كاد يذهب بصوابه .

ولم يشأ ملتن أن يسكت حتى على هذا الكتيب الذى رد به مورس ، فبادره بكتيب سماه « الدفاع عن نفسه » وعاد يسخر فيه من مورس ويضيف إلى ما رماه به من مطاعن شخصية مطاعن جديدة ليست دون سالفتها إخاشاً وإقذاعا ، وعقب مورس على هذا محاولا أن يبرىء نفسه من كل ما رمى به ، ولكن ملتن يأبى إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ولذلك نقيه برد ثالث آثر بعده مورس الصمت فلا طاقة له بهذا الذى يرسل الصواعق عليه لا ينى ولا يفتر ولا يريد أن يسمع دفاعا ولا استغفاراً .

هذه هى قصة النزاع بين ملتن وبين سلاميس ومورس وهى قصة كما رأينا حوت الكثير مما يكشف لنا عن جوانب شخصيته ويرينا جانباً من آرائه وموقفه من كرمول وحكومته ورجال عصره.

(يتبع) الخفيف